مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 293- 310 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

"سلسلة الأسلوبيّة في خدمة التّراث" دراسة وصْفيّة نقدية

Descriptive and Critical Study to the "Series of Stylistics in Service of Heritage"

د. عبد الوهاب بافلح.*

Dr. Abdelouahab baflah

جامعة مولاي عبد الله – فاس المغرب

University of moulay Abdellah- Fez/ Morroco

تاريخ الإرسال:2018/11/12	تاريخ القبول: 2019/10/01	تاريخ النشر: 2019/12/01

مُلخّص البحث

يهدفُ هذا المقال إلى تقديمِ دراسةٍ نقدِيّة لعملٍ أكادِيميّ يندرِجُ ضمن الدّراسات الأدبِيَّة الحدِيثة المهتمّة بمناهج تحلِيل النُّصوصِ الأدبِيَّة الإبداعِيَّة من زاوية اللُّغة والأسلوب وهو "سلسلة الأسلوبِيَّة في خدمة التُّراث". ولتحقيق هذا الهدَفِ وظّف المقالُ الوصْفَ والتّحليلَ لمضمونِ السّلسلةِ فشرحَ مجموعةً من المفاهِيم العلمِيَّة المؤطِّرةِ للتحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي (الحدسُ والأسلوب، والعدول والاختيار والذّاتِيّة والموضوعِيَّة) وقدّم الحدود المفهومِيَّة لهذه المصطلحات كما تبنّتها السّلسلة. وقدّمَ المقالُ أيضا مجموعة من النّماذِجِ المعالجة في السّلسلة لغرضِ التّمثِيل والتّوضِيح، كما نبّهَ على الأسبابِ التِي دعتْ إلى إنتاجِ هذا العملِ والتِي ما تزالُ قائمةً لحدِّ الآن مِن أجلِ مواصلةِ الجهودِ في هذا السّبِيلِ. ختم المقالُ بعد الوصفِ ومناقشة النّتائج المتوصّلِ إليها بالبحثِ بخاتمة ومجموعة توصِياتٍ تعتبَرُ استشرافاً لمسِيرِ هذا الحقلِ المعرِفِيّ.

الكلمات المفتاحية: أسلوب؛ عدول؛ حدس؛ ذاتية؛ موضوعية؛ أسلوبية؛ تراث

Abstract:

This article provides a description and a critical analysis of an academic work within the modern literary studies which tackles the curriculums of creative literary texts analysis from the angle of language and style which is: "The Series of Stylistics in Service of the Heritage."To achieve that, the article employed the concepts which are used in the stylistic and linguistic analysis (intuition, style, deviation, lexicalization, subjectivism, and objectivism). In addition, the article gives a number of examples from the series and clears up the reason and purpose of the realization of this series. In the end, most results and recommendations were given where they were considered as a foresight of the course of this field of knowledge.

* عبد الوهاب بافلح. abdelouahab.baflah@usmba.ac.ma

Keyword: Style; Stylistics; Deviation; Intuition; Subjectivism; Objectivism; Heritage.

أولا: مقدّمة:

ينال النّصّ اللُّغوِي الأدبِي عناية بالغة في أقسام الدّراسات اللّغوِيّة والأدبيّة في الجامعات، فهو يمثّل المادّة الخامّ التِي يشتغلُ عليها الطّلبة لأجل تثقِيفِ ملكاتهم اللُّغوِيّة وَشحذها، فالسّبِيلُ الأمثلُ لامتلاكِ نصِيبٍ وافِرٍ من علوم اللُّغة بشتّى فنونِها هو الاشتغالُ على النُّصوص التِي أنتجها أهل هذه الفنون، سواء كانت إبداعِيّة أم نقدِيّة.

ويدخُلُ في إطار النُّصوص اللّغوِيَّة المقصودة في هذا المقالِ مجموعة كبِيرة ممّا خلَّفه القدماء القاسم المشتركُ بينها أنّها تشتغلُ باللُّغة وفِي اللُّغة. بداية من نصوص تفسِير القرآن الكرِيم والأحادِيث النّبوِيّة ومرورا بالرّوايات التّارِيخِيَّة ووصولاً إلى النُّصوص النّقدِيَّة والنّحوِيّة والبلاغِيّة والمعجمِيَّة والأدبِيَّة، لا يخرجُ من دائرة النّصّ اللُّغوِيّ إلّا ما أخرجَ من دائرتِهِ تناول اللُّغة بأيِّ شكلٍ كان. وعلى هذا التَّحدِيد المنهجِي للنَّصّ اللُّغوِيّ الأدبِي سارتْ **"سلسلة الأسلوبيّة في خدمة التّراث"** لِ: محمد بوحمدِي[1] وعبد الرّحِيم الرّحموني[2] فِي ثلاثِ حلقاتٍ. أُنشئتْ مِن أجلِ تغطِية النّقصِ الملاحَظِ في الدِّراسات التَّطبِيقِيَّة للمناهِج اللُّغوِيَّة والأدبِيَّة على النُّصوص الإبداعِيَّة الشَّعرِيَّة والنَّثرِيَّة وغيرِها. فما طبيعة هذه السّلسلة؟ وما الملامح البارِزة التي قدّمتْها لِلمنهَجِ الأسلوبِيّ؟ ويسعى هذا المقالُ إلى تقديم إجابة عن هذه الإشكالاتِ بالوصفِ والتّحليلِ لمضمونِ السّلسلةِ، بالإضافة إلى دراسة عيّناتٍ من نصوصِها ومناقشة ما يمكِنُ اعتبارُهُ إضافةً نوعِيّة فِي توظِيفِ مناهِج تحليل النُّصوصِ.

ثانيا: تعرِيف سلسلة "الأسلوبِيَّة في خدمة التُّراث":

أنتِجَتْ سلسلة "الأسلوبِيّة في خدمة التّراث" بين سنتَيْ 1990 و2005م على ثلاثِ حلقاتٍ متتالِياتٍ، نُشِرَتْ في طبعةٍ مِن الحجمِ الصّغِيرِ بحيثُ يستطاعُ حملها دون أدْنَى عناءٍ لغرَضِ القراءةِ في أوقاتٍ متفرّقة، كما أنَّ هذا النَّوعَ مِن الطَّبعِ لا يشكِّلُ عائقاً لاقتنائِهِ لانخِفاضِ تكلفَتِهِ المادّيّة. بلغت عدد صفحاتِ السّلسلة بحلقاتِها الثّلاثِ أكثر مِن 300 صفحة.

اشترَكت الحلقة الأولى والثّانية في منهجِهما القائم على انتقاءِ نصوصٍ داعمةٍ للتّحلِيلِ اللُّغوِيّ الأسلوبِي، لتحقِيقِ التّمكُّن اللّغوِيّ والأسلوبِيّ وسأعرِضُ طبِيعة هذه النُّصوص في المحاوِرِ القادمة. أمّا الحلقة الثّالثة فتكوّنت مِن مجموعةٍ من الدّراساتِ منطلقُها رصدُ أركانِ الدِّراسة اللُّغوِيّة الأسلوبِيَّة في التُّراثِ من خلالِ كتابَيْ "بدائع الفوائد" للإمامِ ابن القيّم الجوزِيَّة (ت: 751هـ) وتفسِير "الكشّاف عن حقائق التّنزِيل" للإمام الزّمخشرِيّ (ت: 581هـ) وفِي دراسة منفرِدة أدرِجتْ ضمن الكتابِ تحدّثتْ عن مزالِق الإحصاءِ في الدِّراسة الأسلوبِيَّة الحدِيثة تتمِيماً لأركانِها.

لَم تحمِلْ الحلقات الثّلاث نفسَ العنوان رغم اندِراجها في نفسِ السّلسلة، فكانت عناوِينها على شكلِ إجاباتٍ لمحاور السّلسلة وتحقِيقا لأهدافِها.

الحلقة الأولى كان عنوانها: تحلِيلٌ لغوِي أسلوبِي لنصوصٍ مِن الشّعرِ القدِيم، ومن خلالِ محتواها فإنّها استجابةٌ مباشِرة لمطلَبِ تدرِيس المادّة في الأقسام اللُّغوِيَّة والأدبِيَّة بالجامعة للحاجة الماسّةِ إلَيْها، كما سيتمُّ بيانُهُ فِي المحاوِرِ التّالِية.

الحلقة الثّانية كان عنوانُها: التّحلِيل اللُّغوِيّ الأسلوبِيّ منهجٌ وتطبِيقٌ، تضمّنَتْ إضافة إلَى النُّصوص المحلَّلة حسَبَ المنهَج المتّبعِ، بياناً لِأركانِ المنهَجِ ومراحلِهِ الإجرائِيَّة استجابة للإشكالاتِ الواردة بعدَ نَشْرِ الحَلَقَةِ الأُولَى.

الحلقة الثّالثة كان عنوانُها: دراسات أسلوبِيَّة في التُّراث، تغيَّرت طبِيعةُ هذه الحلقة عمّا سبقها، فقد حملت طابعا استكشافِيّاً لنصُوصٍ نقدِيَّة مِن التُّراثِ، فكانَتْ فِي مستوَى نقد النَّقدِ، وسعتْ نحوَ تقدِيم النّموذج التّراثي النّاضِج المحقِّق لمعايِيرِ التّحلِيل اللُّغوِيّ الأسلوبِي الملتزِمِ بِمبادئهِ ومنطلقاتِهِ، وكانَ هذا مِن أهدافِ هذه السِّلسلة. بُنِيَ ذلِكَ على نموذجَيْنِ: كتاب بدائع الفوائدِ والتفسِير القيِّم لابن القيم الجوزِيَّة وَتفسِير "الكشّاف عن حقائِقِ التّنزِيلِ" لجار اللهِ الزّمخشرِيّ.

إنّ اختلاف مواضِيع الحلقات الثّلاثِ وتباينها لا يفضِي إلى القولِ بانفصالِ حلقات السّلسلة، وإنّما هذا دلِيلٌ على ترابطِها، إذْ يجمَلُ في الحلقات المتقدِّمة ما سيفصّلُ ويبيَّن فيما يَلِيها، انظُرْ مثلا قوله عن الدِّراسة الأسلوبِيَّة فِي أولى الحلقات: «ولكنّ أوضحَ مَن طبّقه هو الزّمخشرِي في تفسِيرِهِ للقرْآنِ "الكشّاف" وهذا محورٌ مِن محاوِرِ هذه السّلسلة، نرجُو من اللهِ العلِيّ القدِيرِ أن يُوفِّقنا إلى العودةِ إليهِ مستقبَلاً»[3].

فمواضِيع السّلسلة لم يكن ممكِنا تغطيتها على مستوَى حلقةٍ واحدة، وإنّما التّالِي يأتِي تتمِيماً لبناءِ السّابِقِ.

ثالثا: دواعي إنتاج هذه السّلسلة:

أنتِجتْ سلسلة "الأسلوبيّة في خدمةِ التُّراث" خلالَ ممارسة التَّعلِيم الجامعِي في كلّية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بظهر المهرازِ، في أقسام الدّراسات العربيَّة اللّغويَّة والأدبيَّة. وبهذا فهِيَ تستجِيبُ لمتطلّباتِ فئة الطّلاب المقبلِينَ على هذهِ الأقسام الرّاغِبِينَ فِي تحصِيل مختلف المعارِف المعنِيَّة بدراسَةِ اللّغة العربيَّة. فقامتْ السّلسلة بِمعالجةُ قضايا تلقِّي وتعلِيم النّصّ اللُّغوِيّ الأدبِيّ، ويمكِنُ إجمالُ هذه المتطلّبات والدّوافع في النِّقاطِ التّالِية:

- كثرة المناهج وتزاحمها، سواء منها اللّغوِيّة أو الأدبِيَّة النّقدِيَّة، التّراثِيَّة أو الغربِيَّة المستوردة، حيثُ كانت فترة الثّمانِينات والتّسعِينات مِن القَرنِ الماضِي مسرحاً يضجُّ بأشكال من المناهِج والمدارِس (البنوِيّة، الأسلوبِيَّة، السّيميائِيّة، الشّكلانِيّة...) اتّخذت لنفسِها النّصّ اللُّغوِي مجالاً للاشتغالِ، تختلف من حيث منطلقاتها ومبادِؤها وأهدافها وآلياتها الإجرائِيَّة، وبالطّبع فلكلِّ منهجٍ روّادهُ وأصولهُ التِي يستنِدُ إليها، ويطفو على سطحِ هذا الزّخَمِ سؤال المنهج الأنجع والأمثل لملامسةِ النُّصوص اللُّغوِيَّة والأدبِيَّة ودراستها. وهذا وجهٌ مِن أوْجُهِ الأزمة بين التّنظِيرِ والتَّطبِيقِ، «ولا يخفَى أنّ في الانتقالِ من التّنظِيرِ إلى التّطبِيقِ عقباتٌ لا تُحصَى»[4] و«الحاجة ماتزالُ ماسَّةً إلى اختبارِ هذه المناهِجِ على مستوَى الممارسة الفعلِيَّة، وعلى مستوَى التّطبِيقِ، ونعانِي مِن قصورٍ واضِحٍ فِي هذا الجانِبِ»[5].
- الحاجة الماسّة إلى منهجٍ متكامِلٍ يتواءمُ مع طبِيعةِ النّصوص العربِيَّة بكلِّ أجناسِها (الشّعر والنّثر): إن كان تعدّد المناهِج يفضِي إلى المطلبِ السّابِق، فإنَّ مِن معايِيرِ المنهَج العلمِيّ أن يتواءمَ والنُّصوص المدروسة، أي: أن يكون مطاوِعا لها عارِفا بِطَبِيعتها، فِيهِ صفة التّكامُل بوضوحِ مراحلِهِ وتتابعها وإفضائِهِ إلى النّتائج العلمِيَّة، فما هو المنهَج الأمثَلُ الحامِلُ لهذه المعايِيرِ.
- غضّة وطراوة عود الطّلبة المقبِلِين على أقسام الدِّراسات اللُّغوِيّة والأدبِيَّة، وبالتّالِي ضياعهمْ في متاهات المناهِج المختلفة ما توافق منها وما تخالَفَ. يعتبرُ هذا مِنْ أدعى الأسبابِ إلى إنشاءِ مثلِ هذه السّلسلة، فَإنَّ ضعفَ التَّكوِين القاعدِيّ الذِي يعانِي منه تعلِيمُ اللَّغة

العربيَّة، لا يعودُ إلَى سببٍ واحِدٍ، ولا كانت معالجتهُ ممكنة بَيْنَ عشِيَّة وضحاها، فكيفَ إذا أضِيفَ إلى هذا اختلاف المناهِجِ وتنافسُها إلَى أيْنَ ستفضِي هذه الحالُ، وكيفَ سيَتمكّنُ الطّالِبُ مِن تحصِيلِ مرادِه داخِلَ هذا الجوِّ المشحونِ.

- استثمارُ التّراث الزَّخم الذِي خلَّفه الأجدادُ فِي مختلفِ العلوم. لا ينكِرُ أحدٌ حجمَ الجهودِ التِي بذلها السّابقونَ فِي دراسة كيان اللّغة مِن شتَّى جوانبِها (المعجمِيَّة، الصّوتِيَّة، الصّرفِيَّة النّحوِيَّة والدّلالِيَّة) على صعِيدِ مختلف النّصوص (اللُّغة اليومِيَّة، أو الأدبِيَّة الفنِيَّة) ولا أدلَّ على ذلِكَ ما خلَّفوهُ مِن تراثٍ شارَكَ فِي إنتاجِهِ أجناسٌ مختلفة على مرِّ القرونِ، فكيفَ يمكِنُ إغْضاءُ الطَّرفِ عن مِثلِ هذهِ الجهودِ والتّخلُّصِ منها بجرّة قلمٍ، لداعِي التَّحدِيثِ ومواكبة العصَرِ، برغمِ أحقِيّة هذا التّراث بمعالجة مواضِيع اللّغة والأدبِ إذْ أصحابهُ هم الذِينَ عايشوا الذِينَ مِن أفواهِهِم نقلت هذهِ اللُّغة، وعرفوا شتَّى أنواعِ استعمالاتِها.
- البحثُ ضِمنَ هذا التّراثِ عن الدِّراسات اللُّغوِيَّة والأدبِيَّة الجادَّة والأصِيلة، التِي تمثِّلُ وجها ناصِعا من أوجُه تلقِّي النُّصوص لدى القدماءِ، ليسَ يفصِلُ بينَ المعارِف حدودٌ إلّا ما كان من بابِ المنهجِيّة، إذ العلومُ يكمِّلُ بعضها بعضاً والغاية تقضِي الأخذ مِن هذا وذاك.

رابعا: طبِيعة النُّصوص المتناولة في السِّلسلة ومميِّزاتها.

جدوَل وصفِيّ للنُّصوص التِي تناولتها السلسلة بالدِّراسة:

	عنوان النّصّ	طبِيعتهُ	عصره	ملاحظات
.1	مقطوعة عمر بن شأس (أرادت عراراً)	مقطوعة شعرِيَّة مِن سِتّةِ أبياتٍ	العصر الجاهلِيّ	
.2	قصِيدة أبِي نوّاس (دع الرّبع)	قصِيدة شعرِيَّة من 23 بيتاً	العصر العبّاسِي	
.3	قصِيدة أبِي العتاهية (قطعتُ مِنكَ حبائل الآمالِ)	قصيدة شعرِيَّة من 41 بيتا	العصر العبّاسِي	
.4	قصِيدة المتنبِّي (ضيفٌ ألمّ برأسِي غير محتشِم)	قصِيدة شعرِيَّة من 31 بيتا	العصر العبّاسِي	
.5	الآيتان: 24-25 من سورة الذاريات	آيات قرآنِيَّة	//	تفسِيرها من كتابِ "التفسِير القيّم لابن

.6	الآية 30 من سورة يوسف	آيات قرآنيَّة	//	القيِّم "
.7	قصِيدة (غير مجد فِي ملّتِي واعتقادِي)	قصِيدة شعريَّة مِن 22 بيتاً	العصر العبّاسِي	
.8	الزّمن والحقِيقة في النّسِيب والغزل	نصٌّ مترجم من اللغة الإنجليزية لِرونِيت جاكوبِي	العصر الحدِيث	النص من كتاب: مقالات المستشرقِين، مختارات في النقد الأدبي بالإنجليزية
.9	نصوص مختلفة من كتابِ "بدائع الفوائد" لابن القيم			
.10	نصوص مختلفة من كتابِ "الكشاف عن حقائِق التنزِيل" للزمخشرِي			

اختلفت النُّصوص المتناولة بين النُّصوص الإبداعِيَّة والنّقدِيَّة، لغايةِ الإحاطةِ بِمستويات التّحلِيل اللُّغوِيّ الأسلوبِي القائم على رَصْدِ الظّواهِرِ في النُّصوصِ التِي تنشِئُ الخاصِيَّة الأدبِيَّة والشّعرِيَّة فِيها. وقد جعل حتَّى من النُّصوص القرآنِيَّة مطِيَّة لتحقِيق هذه الغاية، إذِ القرآنُ فِي أعلى درجات توظِيفِ اللُّغة.

كما أنَّ من النُّصوصِ ما يخدمُ غرَضَ توضِيحِ جهود القدماءِ، وتمكّنهم مِن سبرِ أغوارِ هذا المستوَى من الدِّراسات اللّغوِيَّة، رغم ما أحِيطَ بهم من التّعتِيم والتَّنفِيرِ.

إنّ السّلسلة قد سعَتْ من خلالِ هذا النّسِيجِ مِن النُّصوصِ إلى إعادة الوهَج للدِّراسات اللّغوِيَّة التِي تأخذُ من حقولٍ معرفِيَّة مختلفة، وتنفتِحُ على مجالاتٍ رحِيبةٍ، نظرا إلى طبِيعة اللُّغة نفسِها التِي لا يستغنِي مجالٌ من مجالاتِ الحياةِ من توظِيفها.

والملاحظُ أنَّ أغلب النُّصوص الإبداعِيَّة كانت شعرا من العصرِ العبّاسِي[6]، ربّما كانَ ذلِكَ استجابة لرغبة التّجدِيدِ التِي اتّسم بها هذا العصرُ، إضافة إلى سهولة معجمها اللُّغوِيّ وبعدها عن المعجَم البدوِيّ تماشِياً مع التّطوُّرات الحادثة في المدنِيّة الإسلامِيَّة.

خامسا: منهَج تناول النُّصوص وتعالق اللُّغة والأدب:

تختلفُ درجات تعامل النُّصوصِ مع اللُّغة، باختلافِ منطلقات ومقاصِد المشتغل على النُّصوص، فتجِدُ لذلِكَ اختلافا في نضجِ الأجهزة المتعامل بها، وقد أبدعَ كلُّ اختصاصٍ أدواتٍ منهجِيَّة وصاغَ مبادِئ تتوافقُ مع حاجاتهِ وتحقِّقُ أغراضَهُ، ومِن هذهِ الأجهزة النّاضجة علم أصول

الفقهِ الذِي يتعامل مع النُّصوصِ الشَّرعِيَّة، وقد صاغَ مجموعةً مِن المبادِئ والآليّات ذات الطَّبِيعة اللُّغَوِيَّة تتيحُ له الوقوف على المقاصد المباشرة وغير المباشرة لهذا النّوع من النُّصوصِ.

وبالنِّسبةِ للنُّصوص الإبداعِيَّة الفنِّيَّة، فإنَّ المنهَج الأقومَ لدراستِها يقتضِي التَّوفِيقَ بين نظامِ اللُّغة ومقاصِدِ الشّاعِرِ أو النّاثِرِ مبدعِ النَّصِّ، وقد أشارتْ السِّلسلة إلى هذا المبدأ الأساسِيّ في التَّحلِيل، فـ«لا ينبغِي أن تجعلَ فواصِلُ كبرَى بينَ دراسة النَّصِّ وتحلِيلِهِ، وبين علوم العربِيَّة، لأنَّ ذلِكَ يُعدُّ إجحافا في حقِّ النَّصّ، ونبذاً لمسلّماتٍ لا بُدّ مِن التّسلِيم بشرعِيَّتِها وقدسِيَّتِها»[7] مؤكّدة على الرّوابط القائمة بين اللُّغة والأدب، وأنَّهما من طبِيعة واحدة، فإهمالُ أحدهما على حِسابِ الآخَرِ استِنْقاصٌ من النِّظام الذِي ينتميانِ إليهِ. وقد فنّد الدّكتور الحاج صالح عبد الرّحمن الرّأيَ القائل بانفصالِ اللُّغة عن الأدبِ واختِصاصِ كلٍّ منهما بنظامِهِ، وما ينجرُّ عن الإيمانِ بهذا المبدأ كوجود لغةٍ أدبِيّة مشتركةٍ بينَ العربِ بإزاءِ اللّهجات المستعملة في الخطابِ اليومِي، ولكنّ الرّأيَ الأصوَب هو «أنَّ الشّعرَ (والقرآن كذلِكَ) قد جاءَ كلُّهُ بلغة موحّدة»[8].

وفِي خطوةٍ استرجاعِيَّة قامت السّلسلة في حلقتها الثّانِية بتوضِيحٍ لِمواقفها من قضِيّة تعالُقِ اللُّغة والأدب مِن خلالِ تبيِينِ مراحلِ وأسُسِ التّحلِيل اللُّغوِيّ الأسلوبِيّ الذِي تبنّتْهُ، وضبطِ المفاهِيم التِي يقومُ عليها، وكان مِن أهمِّها الحدسُ والأسلوب، والعدول والاختيار والذّاتِيّة والموضوعِيَّة والقارِئ الاستثنائِي المتميِّز.

أ- الأسلوب:

لم تقدِّم السّلسلة تعرِيفاً مباشِرا للأسلوب، ولكن يمكِنُ تلمُّس حدودهِ المفهومِيَّة مِن خلالِ الإجراءات المتّبعة، ومِن خلالِ الاقتباساتِ المنقولة مِن المراجع والمصادِرِ التِي عنيَت بتحدِيدِهِ. ويبرِزُ المؤلِّفانِ مكمَن صعوبة دراسة الأسلوبِ لأنّهُ نتاجُ مختلفِ عناصِرِ النّصّ المعجمِيّة والتّركِيبِيّة والصّرفِيّة والإيقاعِيّة[9]، وبهذا يشركونَ في تحدِيدِ مفهوم الأسلوبِ كلّ ما يشترِكُ في بناءِ النّصّ أو الخِطابِ. ويمكن أن يوافِق هذا قولَ بيير جيرو في أحد جوانبِهِ: «الأسلوب لم يعُد هو فنّ الكتابة فقط، ولكنّه كلّ العنصُر الخلّاق للّغةِ والذِي يُعدّ خاصّة مِن خواصّ الفردِ، ويعكِسُ أصَالته: الأسلوب هو الرّجل»[10]. فلا يمكِنُ أن يشترِكَ فيه اثنانِ لاختلافِ تمازُج العناصِرِ اللّغوِيّة الذي يحدِثُهُ كلّ كاتِبٍ.

وفي اقتباسيْنِ عن ستيفن أولمان (Steven Ulman) يؤَكِّدُ المؤلِّفانِ أنَّ جوهرَ الأسلوبِ يكمُنُ في الاختيارِ بين بديلين أسلوبِيّيْنِ أو أكثَر، وليس الأسلوب الجيّد سِوَى اختيار الكلماتِ المناسِبة[11].

ب– الحَدسُ:

لقدْ قدّمت السّلسلة مكانة مرموقة للحدسِ، وجعلتهُ قاعدةً أساسِيّة يقوم عليها بناءُ التّحلِيل اللّغوِيّ الأسلوبِيّ. فاستحضرتهُ في مراحله الأساسِيَّة؛ فأعطتْ له الأسبقِيَّة في تحدِيد النُّصوصِ التِي يمكِنُ أن يطالَها هذا المنهَجُ مِن التَّحلِيل؛ والمقصود «أنّنا نعتمِد في الاختيارِ على حسِّنا اللُّغوِيّ، وذوقنا الشّخصِيّ، وخبرتنا الذّاتِيّة، ولكنْ، هل يعنِي هذا أنَّ الاختيارَ يكونُ عشوائِيّا، وكيفما اتّفق، ومِن دونِ تدبُّرٍ وإمعان؟ إنِّي لا أظنُّ ذلِكَ»[12]. ويوافِقُ هذا ما حدّدهُ يوسبيتزر من مبادئ للمنهج النّقدي الأسلوبِي؛ إذ يرى ضرورةَ اعتبار الحدسِ أحد الأعمدة الأساسِيّة التي يقومُ عليها هذا النّقْدُ، «فهو وسيلة النّاقد للنّفاذِ إلى محوَر الخطاب الأدبِيّ عبر قراءات متعدّدة له»[13].

إنّ اللّغوِيّين يعتبرون أنّ «النّقد الأدبي دراسة تقوِيمِيّة تقوم على الانطباعات الذّاتِيّة وعلى الحدْسِ والذّوق الشّخصِيّ، ولذلكَ كانت معاييرهُ غير موضوعِيّة»[14]، فقد تجاوزَ المؤلّفان هذه النّظرةَ وقدّما توجِيها مفهومِيّاً للحدسِ بضبطِهِ بالموهبة؛ أيْ الملكة التِي بِها يهتدِي المحلِّلُ إلَى الوقائِعِ الأسلوبِيّة، وبتظافُرِ الموهِبة والدّربة والمرانِ والخبرةِ بالأساليبِ تتحقَّقُ هذهِ الغاية[15].

ج– العدول:

أبدعَ الأسلوبِيّون مصطلحَ (L'écart) للدّلالة على اختيارات مبدع النّصّ على المستويَيْنِ التّوزِيعِيّ (علاقات الكلمة في الجملة) والاستبدالِي (اختيار الكلمة المناسِبة للمقامِ)، «وقد حاول جاكبسون تدقيقَ مفهوم الانزياح فسمّاهُ خيبة الانتظارِ: مِن باب تسمِية الشّيء بما يتولّد عنهُ»[16]. وتبنّت السّلسلة في أصلِها مبدأ الرّجوعِ إلى الكتب التُّراثِيَّة مِن أجلِ تقدِيم رؤيةٍ أصِيلة للمعالجة النُّصوص الأدبِيَّة، وممّا دافعتْ عنهُ التّأكِيدُ على استعمالِ المصطلحاتِ التِي نشأتْ في هذه البيئة، لما تحمله مِن خصوصِيَّةٍ وإبداعٍ، ففضّلتْ على مصطلحِ "الانْزياحِ" الذِي شاع استعمالهُ في الدّراسات الأدبِيَّة الحدِيثة ترجمةً للمصطلح (L'écart) الأجنبِيّ، «إنّ العدول والانزياح يلتقِيان ويفترِقان: يلتقيانِ في أنَّهما كليهِما خروج على وضعٍ لغوِيّ يفترَضُ أنَّهُ الأصلُ، أو خروج عن

الاستعمال العادِيّ للغة، ويفترِقانِ في أنّ الانزياح بالإضافة إلى ما سَبق، قد يكون خروجا على القواعِدِ الأساسِيّة للغة»[17]. ومِن هذا المنطلق قدّمت السّلسلة الفوارق بينَ المصطلحين وخاصّة من حيث البنية الصَّرفِيَّة والدّلالِيَّة والمنشأ ومجال الاستعمال، مرجِّحةً الكفّة لمصطلحِ العدولِ على الانزياحِ، فهو أدقّ منهُ وآصَلُ وأجوَد في الاستعمالِ.

د– الذّاتِيَّة والموضوعِيَّة:

طفا النِّقاشُ حولَ هذا الإشكالِيَّة في حقلِ الدِّراسات الأدبِيَّة لرغبةِ هذه الأخِيرة في التّشبّثِ بالقيم العلمِيَّة، وإبرازِ إنتاجها على وصفٍ عالٍ من الدّقة وانتهاجِ السّبِيل الذِي يفضِي إلى اليقِين وتقدِيم نتائجَ لا يشوبها الوهمُ والاضْطِرابُ والخرافة. ويعود هذا النّقاش في أصلِهِ إلى طبيعة العمل الأدبِيّ الجمالِيّة، «إنّ أهمّ رؤيتينِ تنازعتا تفسير الجمالِ هما الرّؤية الذّاتيّة والرّؤية الموضوعِيّة؛ الرّؤية الذّاتية تريد أن تجعل الجمالَ رهن الإعجاب الشّخصِيّ والانفعال الذّاتِيّ، أمّا الرّؤية الموضوعِيّة فإنّها تؤمِن بإمكانِ البحث عن أسس موضوعِيّة للجمالِ في الشّيْءِ ذاتِهِ على قدرٍ من الثّباتِ بعيدا عن أحكامِ الذّاتِ المتقلّبة»[18].

إنَّ المنهَج المتبنَّى في السّلسلة لَا «يُلغِي تماماً الجانِب الذّاتِي في دراسة الأدبِ، بالرّغم مِن سعيِهِ الدّؤوبِ إلى أن يكونَ موضوعِيّاً ويشترِطُ أن يكونَ الدّارِس ممتلِكاً لحاسّةٍ فنِّيَّة مرهفة تمكِّنهُ مِن التِقاطِ النّبضاتِ الأساسِيَّة للنَّصِّ»[19]. كما «يعتمِدُ على الإحصاءِ الكمِّي والدّلِيل اللُّغوِيّ للتّأكُّدِ مِن سلامةِ النّتائجِ، كما يتجنّبُ التّعبِيراتِ غير العلمِيَّة في التّحلِيلِ»[20]. لكنّ «الموضوعِيَّة بمعنَى إقصاءُ الاعتبارات الذّاتِيَّة كلّيّة مِن دائرةِ التّحلِيلِ الأسلوبِيّ تظلُّ مجرَّد مطمَحٍ نبِيلٍ، ولكنّهُ عسِيرُ المنالِ»[21].

وعلى إشْكالٍ منبثِقٍ مِن هذهِ الثّنائِيَّة نرَى أنَّ السّلسلةَ قَدْ وَقَفتْ موْقِفا حازِماً بشأنِ «الدّلالة الحقِيقِيّة للنَّصِّ، هل هِيَ الدّلالة التِي تنسجِمُ ومقاصِد المبدع؟ أم هِي الدّلالات التِي يُثِيرُها النّصُّ فِي نفسِ كلِّ قارِئٍ على حِدَة»[22]. والتزَمت مبدأً مفادُهُ أنَّ «دِلالة قصِيدةٍ ما هِي مفتوحة قابلة للإضافة والتّعدِيلِ، ومردُّ ذلِكَ إلى اختلافِ مستوياتِ القراءة فهماً ومعرِفةً وتخيُّلا»[23].

سادسا: نماذِج تطبيقِيّة مِن السّلسلة:

قدّمت السّلسلة في مجمَلِ النُّصوص التِي حلّلتها والنّماذِج التِي درستها مِن تحلِيلاتِ (ابن القيِّم والزّمخشرِي) غنيةً عنِ الرُّجوعِ إلى بطونِ الكتُبِ التّراثِيَّة، وتصيُّدِ مثلِ هذهِ الوقفاتِ التِي تنمّي الحسّ الذّوقِي، وتصقُل الملكةَ اللُّغوِيَّة لطالبِها، وستقدِّمُ النّماذِجُ المعروضةُ صورةً لتمثّل السّلسلة للمبادِئِ والأسُسِ التِي صَرَّحَتْ بها.

1- قال عمرو بن شأس الأسدِي: (ت: 20هـ/ 640م): في مطلَع مقطوعتهِ يخاطِبُ زوجتهُ

أرادتْ عِراراً بالهوانِ ومَنْ يُرِد عِراراً –لعمري- بالهوانِ فقد ظَلَمْ

«يستهِلُّ الشّاعِرُ البيتَ الأوّل بفعلٍ ماضٍ مسنَدٍ إلى ضمِير المؤنَّث الغائِب "أرادت". ومرجِع الضّمِيرِ في الفعلِ زوجتُهُ، وهِي قرِيبةٌ منهُ، وملاصِقة له حِسّاً ومعنًى، وكان مِن الأنسَبِ أن يستعمِل ضمِيرَ الخطابِ "أردتِ" لأنّها الطّرف الأساسِيّ في الخطابِ. والمعنِيَّة بشكلٍ مباشِرٍ بموضوعِ الحدِيثِ»[24]. ينبِّه التَّحلِيلُ إلى موطنٍ أساسِيٍّ في النّصِّ وهو مستهلّه أو مقدِّمته التِي مِن خلالِها يتحدّدُ غرضهُ ووجهته، فالمبدِعِ يلقِي بثقله المعنوِي على العتبة التِي تعتبَرُ اللِّقاء الأوّل بين النّصِّ وقارئِهِ، فيشبِعها بمجمَلِ الأغراضِ التِي يَرْمِي إليها مِن خلالِ نصِّهِ. ولمْ يُخفِ التَّحلِيلُ التِزامهُ بِتقدِيمِ الدّلِيلِ على نظرتِهِ ورأيِهِ مِن خلالِ لغة وألفاظِ النَّصِّ ذاتِه، فالفعلُ الماضِي المسنَدُ إلى ضمِيرِ الغيبةِ قدْ تعتبرُ دلالتهُ مباشرة لا ترمِي إلى أيِّ غرضٍ، وهذا استعمالٌ لغوِيّ صِرف، ولكنّ دلالة المقامِ والمعارِف السّابقة تُوحِي بوجودِ أغراضٍ تقفِزُ على هذِهِ الدّلالة السّطحِيَّة. ولم يَقفْ التَّحلِيلُ عند هذا فقطِ، وإنّما أولَى اهتماماً لظاهرة التّكرار في البيتِ كما نبّهَ إلى وظِيفة الجملة الاعتِراضِيَّة وإلى الحذفِ في آخِرِ البيتِ.

2- قال أبو نوّاس الحسنُ بنُ هانِئ فِي قصِيدتهِ "ليلةٌ فِي خمّارة":

وقال ادخلوا...حُيِّيتم مِن عصابةٍ فمنزلكم سهلٌ لديَّ رحِيبُ

«ويلفِتُ الانتباهَ في لفظة "عصابة" أمران: أوّلهما صِيغة النّكرة، ودلالتها هنا كدلالتها في لفظةِ "فِتية" إذْ أنّ التّنْكِيرَ يلقِي بِظلالٍ مِن الغموضِ والإبهامِ حولَ الموضوعِ أو عليهِ. وثانِيهما: أنّها اسمُ جمعٍ لا واحِدَ لهُ مِن لفظِهِ، فكأنَّ هذهِ العصابة لا تنقَسِمُ على نفسِها، فهِيَ كيانٌ واحِدٌ وكلٌّ لا يتجزّأ إلى أعدادٍ صغِيرةٍ»[25] إنَّ هذا النَّصَّ يُظهِرُ الولاءَ الكبِيرَ الذِي يقدِّمه المنهَجُ المتّبعُ في

التَّحلِيلِ للمعارِف اللُّغوِيَّة، فيعتبرها المستند الذِي على أساسِهِ يبنِي آراءهُ واستنباطاتهِ. إنَّ هذه المعارِف اللُّغوِيَّة (المعجم، القواعد النّحوِيّة والصّرفِيَّة...) تعتبرُ الأدواتِ التِي بها يجرِي المحلِّلُ عمليّاتهِ، وفقدانها يعرِّيهِ مِن صِفةِ اللُّغوِي والأسلوبِي، ويحِيلهُ إلى قارِئٍ عادِيّ تمرُّ عليهِ الظّواهر ولا يلقِي لها بالاً.

ويُقِرُّ التّحلِيل في مراحله النِّهائِيَّة على أنَّ استعمالَ صِيغةِ النَّكرة في القَصِيدةِ لم يكُن عفوِيّاً، وإنّما شكَّل ظاهِرةً مستفِيضة تدعو إلى النّظَرِ فِي دلالتها وظلالِها التِي تلقِيها على النّصِّ مجمَلاً، قال: «إنَّ لصِيغة النَّكرة في النَّصِّ وظِيفةً معنوِيَّة، وعلاقة حمِيمة بالجوِّ العامّ للنَّصّ، فالشّاعِرُ يتحدّثُ عن متعةٍ متناهِية، متعةٍ بصرِيّة... ومتعةٍ شمّيّة... ومتعة ذوقِيّة... ومتعة سمعِيّة فهِي إذن متعةٌ شاملة متكاملة تحاصِرُ حواسّه كلّها، لا يحِيطُ بها الوصفُ، وكأنّه في حالة ذهولٍ وانخطافٍ يختلِطُ فيها الوضوح والغموضُ. ويُؤكِّد هذا الفهم أنَّ أبا نوّاسٍ حِينَ يفِيقُ مِن نشوتِه الذّاهلة في البيتِ الأخِيرِ يحدّد الأشياءَ بقوّة وسطوعٍ كسطوعِ الصّباحِ»[26].

كانَ الإجمالُ تنبِيها إلى وجوبِ أنْ يتناولَ النّصّ بمجملِه لا أنْ يرَى إليهِ جُمَلاً أو أبياتاً متناثِرة لا رابِطَ بينَها، وإنّ هذا يؤكِّدُ قوّة ومتانة أسلوب ولغة الشّاعِرِ وتمكّنه مِن ناصِية اللّغة وتحكّمهُ فِيها بتطوِيعِها لأغراضِهِ وغاياتِهِ.

3- قال ابن القيِّم في تفسِيرِ قولِهِ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[27].

قال: «وتأمَّل رحمك الله تعالى السّرّ البدِيعَ فِي عدولِهِ سبحانهُ عن "كلّ حامل" إلى قوله "ذات حمل" فإنّ الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل، وعلى مَنْ هِي في أوّل حملها ومبادئه. فإذا قيل ذات حمل لم يكن إلّا لمَنْ ظهَرَ حملُها وصلح للوضْعِ كامِلًا أو سقطاً، كما يُقالُ ذات ولد»[28] إنَّ فِي نصِّ ابن القيّم إيماناً ظاهِراً بقضِيَّة الأسلوبِ وإسهامِه في إبلاغِ مرامِي صاحب القائل، وأنَّ اللّغة بهذا تتفاوتُ بحسَبِ إجادةِ قائلها ومعرفتهِ بكيفِيّاتِ تصرّف الكلمِ في مجراها لاختلافِ الأغراض والمقاماتِ. يبرِزُ هذا فِي النّصّ مصطلحُ العدول، الذِي تمّت الإشارة إليهِ، والإشادة بتأصِيلهِ في الدّراسات الأسلوبِيَّة التُّراثِيَّة. وقد أدرجت السّلسلة هذا النّموذج ضِمن الحدِيثِ عن العدول المعجمِيّ «ولا نقصِدُ بهِ توليد ألفاظٍ جدِيدة، بل إيثارُ كلمةٍ على أخرَى،

تنتمِيانِ إلى مجالٍ دلاليّ واحِدٍ، وتشترِكانِ فِي المعنَى العامّ»[29]. فالعدول أو الاختيارُ لا يقعُ فقطْ على مستوَى الكلمات وإنّما يطالُ الصّيغ الصّرفِيَّة كما يَطالُ التّراكيبَ ذاتَها بالتَّقدِيم والتّأخير أو الحذف والذّكر أو الإظهار والإضْمار على نحوِ ما سيأتِي بيانُهُ فِي النّماذج التّالِية.

4- تقدِيم لفظ السّلام في الدّعاء بالتّحِيَّة

بيّن ابنُ القيّم السِّرّ الكامِنَ فِي التزامِ القرآنِ تقدِيمَ لفظِ السّلام فِي التّحيّة، وهذا فِي مواطِن متعدّدة من الكتابِ، قال: «وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن لها وهي أن السّلام شرعَ علَى الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلّم عليهم لأنه دعاء بخير والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعو له كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾[30] ...وأمّا الدّعاءُ بالشّرّ فيقدّم فِيه المدعوّ عليهِ على المدعو بِهِ غالِبا كقولِهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[31] وسِرُّ ذلكَ والله أعلم أن في الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ويلذ للسمع لفظه فيبدأ السمع بذكر الاِسمِ المحبوب المطلوب ويبدأ القلب بتصوره فيفتح له القلب والسمع فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل فيأتي باسمه فيقول عليك أو لك فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التّحاب والتواد والتراحم الذي هو المقصود بالسّلام. وأما في الدعاء عليه ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدّعاء وأنّه عليهِ وحدَهُ؛ كأنّه قيلَ لهُ هذا عليكَ وحدكَ لا يشركك فيه السّامعون بخلاف الدّعاء بالخيْرِ فإنّ المطلوبَ عمومُه وكلّ ما عمّ به الدّاعِي كان أفضَلُ»[32]. إنَّ جماليَّة الكلامِ الأدبِيّ لا تتحقّقُ فقطْ بالصّور البديعة والتّشابيه المرونقة، ولا بالوصفِ الأخّاذِ، ولكن يمكِنُ مِن خلالِ التّراكِيبِ البسِيطةِ اسْتنباطُ المعانِي البديعة الرّائقة، وذلِكَ باعتبارِ المقاماتِ واكتناهِ طبِيعةِ اللّغة في مفرداتِها وَصِيغِها. حشَدَ ابنُ القيِّم كما في النّصّ السّابقِ، جملةً مِن الأدوات اللُّغوِيَّة لبيانِ مكمَن التّعبِير، فالتّقدِيم والتّأخِيرُ اعتبارٌ لرتبة الألفاظِ في مجرَى الكلامِ، منها المحفوظة ومنها ما يمكِنُ التّصرُّفُ فِيها لتحقِيقِ أغراضٍ معيّنة. ودلالة العموم والاختِصاص تتبيَّنُ بأضربٍ شتّى في الكلامِ، تستنبطُ مِن التّرتِيبِ ومِن المعانِي المعجمِيّةِ بالتّوافق مع رغباتِ النّاسِ وَما ينفِّرُهُمْ. ولا يمكِنُ الوقوفُ على هذه المعاني إلّا مِن خلالِ المقابلة بين المختلفاتِ، فبذلِكَ يستطِيعُ اللُّغوِيّ والأسلوبِيّ تلمُّس الدّلالة الإضافِيَّة مِن خلالِ التّغيِيرِ الحادِثِ في الكلامِ.

5- **تفسير الزّمخشري لقولِه تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾**[33].

قال: «فإن قلت: هلَّا قيل ذهب اللَّه بضوئهم؟ لقوله: "فَلَمَّا أَضاءَتْ"؟ قلت: ذِكْرُ النور أبلغ لأنّ الضّوءَ فيه دلالة على **الزّيادة**. فلو قيل: ذهب اللَّه بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمّى نوراً، **والغرض** إزالة النُّور عنهم رأساً وطمسه أصلا. ألا ترى كيف ذكر عقيبه "وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ" والظّلمة عبارة عن عدم النّور وانطماسه، وكيف **جمعها**، وكيف **نكّرها**، وكيف أتبعها ما يدلُّ على أنّها ظلمة مبهَمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله "لا يُبْصِرُونَ"»[34].

وخالفت الآية في عجزِها صدرَها بأن أوردتْ لفظاً غيرَ الذِي ابتدَأتْ بِهِ، وهذا لفتَ انتباه المفسِّرِ، فتصيّد هذا التّغيِير وأعمَلَ فِيهِ فكرَهُ ليدلّ على وقوعِ زيادة في المعنَى ناتجة عن المخالفة بينَ اللَّفظَيْنِ "النُّور" و"الإضاءة". والمقامُ مقامُ ذمٍّ واستِنقاصٍ لِمَن استبْدلَ دِينَ اللهِ بغيرِهِ، فلا نورَ ضياءَ لهُ ولا نور. وتظافرَتْ ألفاظُ الآية مجتمعةً لتحقِيقِ غاية الاسْتقباحِ والاستِنقاصِ، فكثافة الحقلِ الدّالِ على الظّلمة والتّيهانِ ألقَى بظلالهِ على الآية وجعلها تحومُ في حِماهُ وتفنّن التّعبِيرُ عن التّيهان بتوظِيفِ ألفاظٍ مختلفة وبطرِيقةٍ بدِيعة. ولم يفُت الزّمخشرِي الإشارة إلى الحذفِ في آخِرِ الآيةِ ليزِيد المعنَى تأكِيداً فلم يتعيَّن ما لا ينالهُ إبصارُهُم ليسَ ليشمَل مجالاتٍ عدّة غير معيّنة، ولكن من بابِ الاستِنقاصِ وعدمِ الاعتبارِ لأيِّ شيْءٍ يبصرون مهما كان، إذْ غابتْ عنهُم أعظم الحقائِق تحقِيقاً لحقِيقةِ تَيَهانِهِمْ وبعدِهِم عن الصّواب. قالَ: «والمفعول الساقط من (لا يبصرون) من قبيل المتروك المطّرَح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدّر المنوِيّ، كأنّ الفعلَ غيرُ متعَدٍّ أصلًا، نحو "يَعْمَهُونَ" في قوله: "وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ"»[35].

6- **تفسِير الزّمخشرِي لقولِه تعالى:﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾**[36].

قالَ: «فإن قلتَ: رأيس[37] الأصبع هو الذي يُجعَل في الأُذن فهَلّا قِيلَ: أناملهم؟ قلتُ: هذا مِن الاتّساعات في اللُّغة التي لا يكاد الحاصِرُ يحصُرُها. كقوله: "فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ" "فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما" أرادَ البعضَ الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرّسغ. وأيضا ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل»[38]. استعمالُ "الأصابع" بالجمعِ والمراد طرف الأصبع الواحِدِ الذِي يدخَلُ في الأذن استعمالٌ مجازِيّ غرضُهُ المبالغة لتحقِيقِ رغبتِهِم فِي الفرارِ مِن الصّوتِ الذِي

ينبِئهم بوقوع فاجعة الموت، فليسَ المفسِّرُ يخرجُ عن إطارِ اللُّغة بالتّقيُّد بمرادِ صاحِبِ النّصِّ مِن خلالِ ألفاظِهِ وتركِيبِها في الكلامِ، وبِتقنِينِ أعراف أهلِ اللُّغة الذِينَ درَجوا على مثلِ هذهِ الاستعمالاتِ.

إنَّ الذِي لفتَ انتباهَ مؤلّفي السّلسلة في الأساسِ في تفسِير الزّمخشرِي توظِيفه لعباراتٍ تُنبِئُ عن حِسّهِ اللُّغوي والجمالِي المرهف، فقولُهُ "فإن قلت: هلّا قِيل" «فالزّمخشرِي ما ينفكُّ يتساءَلُ: لمَ قِيلَ كذا، ولم يقل كذا، أو: هلّا قِيل كذا. ولا يفوتهُ في جمِيع الأحوالِ أن يُلاحِظ ما قِيلَ أوجهُ ممّا لمْ يُقَلْ، وأنّ هذا الوَجْهَ التّعبِيرِيّ المستعمَل في كتابِ اللهِ عزّ وجلّ أصَحُّ الوجوهِ الممكِنة، وأكثَرُ سدادا وألطفُها وَقْعاً، وأخلدها تأثِيراً، وأسرعها نفاذاً إلى القلبِ»[39].

7- **تفسِير ابن القيم لقولِه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾**[40].

قالَ: «تأمّلْ كيف وصَف الدّين الذي اختاره لَهم بالكمالِ، والنّعمةَ التي أسبغَهَا عليهِمْ بالتّمام إيذانا في الدِّين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذانا بدوامها واتصالها... وتأمّل حسن اقتران التّمام بالنّعمة وحسن اقتران الكمال بالدّين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له. وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقا، وهم قابلوها... واللفظتان- وإن تقاربتا وتواخيتا- فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل. فإنّ الكمال أخصّ بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها... وأما الإتمام فيكون في الإيمان والمعاني، ونعم الله أعيان وأوصاف ومعان»[41]. لا يبتعِدُ هذا التَّفسِير في جوهرِهِ عن الإجراءات التِي اتّبعها الزّمخشرِيّ فإنَّ يبيِّنُ مقصدِيَّة القرآن في اختيارِ ألفاظِهِ المبلِّغةِ لِمرادِهِ المحقِّقةِ لمقاصِدِه، ليسَ فقطْ لذاتِ اللَّفظة ولكن لاقترانها مع غيرِها ومناسبتِها لما بعدها وما قبلها. إنّهُ الحسّ اللّغوِيّ الممكِّنَ مِن اصطِيادِ مثلِ هذهِ النّكتِ ووضعِها على المِقياسِ الذِي يُبرِزُ أفضلِيّتها ومِيزتَها على غيرِها مِن الكلام، ويكفِي أنّهُ كلام ربِّ العالمِين الفصِيح الذِي لا تعلو على لغتِهِ لغةٌ أخرَى، ولا تزاحمها في بيانِها وفصاحتها.

سابعا: خاتمة:

استطاعتْ هذه السّلسلة تحقِيق مجموعةٍ من الغايات البحثِيَّة كالجمع بين المتعة والإفادة من خلالِ تنوِيع النُّصوص المختارة بَيْنَ الأشعارِ والنُّصوص القرآنِيَّة والنَّثرِيَّة.

لم تكُن هذه السّلسة من الدِّراسات حلقة وحدها، وإنّما شارطتها في مجالِها مجموعةٌ قد لا يمكِنُ حصرُها ولن يمكِنُ التَّمثِيلُ لها بما يلِي:

- النّصّ الشّعرِيّ وآليّات القراءة، د. فوزِي عِيسَى، دار المعرفة الجامعِيَّة مصر، 2006.

برغمِ حصرِ مادّة اشتغالِهِ في النُّصوص الشّعرِيَّة إلّا أنَّهُ قدَّم هو الآخَر مقاربات موفّقة بين المعارِف التّراثِيَّة والمعارف المستحدثة.

وممّا يؤخَذُ على هذا المنتوجِ ضعفُ إخراجه وتسوِيقه، إذْ رغبتُ هنا في الجزائر في الحصولِ على نسخةٍ منهُ فلم أوفَّقْ، ولم يقم الدّكتوران بتنقِيح عملهما وإغنائِهِ بما هوَ جدِيدٌ ومسايِرٌ للمتطلّباتِ المتزايدةِ، وبإشراكِ مجموعةٍ أخرَى مِن الباحثِينَ الجادِّين الذِي يتبنّونَ نفسَ المسارِ ويُدعِّمونَهُ.

ويبقَى أن نشِيرَ إلى أنَّ هذهِ السّلسة قد أعطَتْ تميُّزا ببساطتها ووضوحها وإيمانِها بقوّة النّصِّ التُّراثِي في مقاربة طبِيعة اللُّغة والوقوفِ على أهمِّ ما يحدِّد ملامِحها ويُشِيرُ إلى ملكاتها التّواصلِيَّة والتّأثِيرِيَّة، كما كان لها الفضلُ بالمزاوجةِ بيْنَ التّطبِيق والتّنظِير، اللّذين لا ينفصِلان عن بعضِهِما ولا يستغنِي أحدهما عن الآخَر، ليس لشيْءٍ إلّا للتّأثِيرِ المتبادل بينهما، واحتياجِ أحدهما إلى الآخَرِ. فلذلِكَ يدعو هذا المقال إلى تبنِّي مثل هذه الأشكال من المعالجاتِ التِي لا توفِّقُ بين النّظرِي والتّطبِيقِي فقط بل إنّها تتوسّل النُّصوص التِي تقدِّم رُؤيةً لغوِيَّة مهما اختلف مجالُ اشتغالِها (تفسِير، نقد، بلاغة، نحو...) إذْ يكفِي أن تجعل اللُّغة وجها مِن الأوجهِ التِي تحملُ رسالتَها عليهِ.

لقد مثّلت السّلسلة وجهاً ناصِعاً لتفاعُلِ الأدب مع اللُّغة، مدعِّمةً النَّظرة القائلة بانتِفاءِ اختِصاصِ كلٍّ بنظامِها، وإنّما هو نظامٌ واحِدٌ ينطبِقُ على المجالَيْنِ. والاختلافُ كامِنٌ فِي الأغراضِ والتّفنُّنِ فِي إيرادِ الجُمل على أشكالٍ متعدِّدة.

أجابت السّلسلة عن مجموعةٍ مِن الإشكالات القائمةِ فِي التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي والوشائج بينَ اللُّغة والأدبِ، مِن بينها: الفارِقُ بينَ اللُّغة العادِيّة واللّغة الأدبِيَّة، والاعتبارات المعيارِيَّة لاختيارِ النُّصوصِ الأدبِيَّة، أيْ معايِيرُ تفاضُلِ النُّصوص الأدبِيَّة بينها، دور الحدسِ في الدِّراسة اللّغوِيَّة الأسلوبِيَّة، التّوازن بين الذّاتِيَّة والموضوعِيَّة في الدِّراسات الأسلوبِيَّة، مكانة الإحصاءِ فِي التّحْلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي.

استطاعتْ السّلسلة مِن خلالِ نخبة المراجع والمصادِرِ التي استَلْهَمَتْ مِنها مادّة الكتابِ (النّظريَّة والتّطبيقيَّة) العربيَّة والأجنبيَّة أن تنتقِيَ منها ما يغنِي الطّالِبَ مِن العودةِ إلى غيرِها وقضاء السّاعاتِ الطّوالِ في التّنقيبِ والجمع، وطوَتْ خطواتٍ عرِيضةً للطّالِبِ الباحِثِ وكشفَتْ عن وَعْيٍ وإدراكٍ كبِيرٍ لمسألة الأسلوبيَّة بثوبٍ عصرِيّ ولبٍّ تراثِيّ أصِيلٍ.

إنّ رائِي شكلَ إخراج السّلسلة وحجمها قد يستصغِرُها ويحتقرها فيصدقُ فِيهِ قولُ كثير عزّة:

تَرَى الرَّجَلَ النحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وفِي أثْوَابِهِ أسَدٌ مَزِيرُ

ويُعجبُكَ الطّرِيرُ فتبْتَلِيهِ فيُخلِفُ ظنَّكَ الرّجلُ الطّرِيرُ[42]

وهِي بحقٍّ قد أسْفرتْ عن وعيٍ منهجِيٍّ كبِيرٍ مِن خلالِ ضبطِ جملة المفاهِيم المؤطِّرة للبحث اللّغوِي الأسلوبِي، ومِن خلالِ معالجة مجمَل النّماذج المعروضةِ نتفٌ منها في خلالِ المقالِ.

أخيرا فاضَ عن حجمِ هذا المقالِ الحدِيثُ عن مجموعةٍ مِن المفاهِيم الملحقة بما تمّ بيانهُ ليسَ لِضمورِ استعمالِها ولا لِعدمِ مركزِيّتِها في المنهج اللُّغوِيّ الأسلوبِيّ، ولكن لضيقِ المساحة المعلنَةِ ولتزاحمِ المشاغِلِ وتقلُّصِ فسحَةِ الغلافِ الزّمنِيّ المخصّصِ لإعدادِها. فربّما برزتْ سانِحةٌ لِتتمِيمِ ما بقِيَ مِن المفاهِيم والأركان (الاطِّراد، الإحصاء، المقارنة...).

هوامش:

[1] محمد بوحمدِي: أستاذ النقد القديم بجامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب– ظهر المهراز فاس.

[2] عبد الرحيم الرحموني: من مواليد مدينة مكناس (المملكة المغربية) أستاذ النقد القديم بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، حاصل على شهادة الدكتوراه من جماعة إيكس بمرسيليا سنة 1982م، شغل عدة مناصِب: رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها، رئيس مختبر الأبحاث والدراسات المصطلحية، رئيس تحرير مجلّة دراسات مصطلحيّة.

[3] عبد الرحيم الرحموني ومحمد بوحمدِي: التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مطبعة أنفو برانت– فاس، ط1، 1994م، ص5.

[4] عبد الرّحِيم الرّحموني ومحمّد بوحمدِي: تحلِيل لغوِي أسلوبِي لنصوصٍ من الشّعرِ القدِيم، دار الأمان– الرّباط، ط1، 1990، ص6.

[5] التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مرجع سابق، ص1.

[6] ذكرت السّلسِلة أنّها تأمَلُ فِي «تحلِيلِ نماذج شعرِيَّة أخرَى، تغطِّي كلَّ مراحِلِ التّارِيخ الأدبِيّ العربِيّ القدِيم، جاهلِيِّه وإسلامِيِّه: مشرقِيِّه وأندلسِيِّه»، عبد الرّحِيم الرّحمونِي ومحمّد بوحمدِي: تحلِيل لغوِي أسلوبِي لنصوصٍ من الشّعرِ القدِيم، دار الأمان- الرّباط، ط1، 1990، ص7.

[7] تحلِيل لغوِي أسلوبِي لنصوصٍ من الشّعرِ القدِيم، مرجع سابق، ص8.

[8] ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: السّماع اللُّغوِيّ العلمِيّ عند العَرَب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر- الجزائر، ط1، 2007م ، ص147.

[9] دراسات أسلوبِيَّة في التُّراث، مرجع سابق، ص68.

[10] الأسلوبِيّة، بيير جيرو، تر: منذر عيّاشي، ط2، 1994م، دار الحاسوب، حلب، ص42.

[11] ينظر: التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مرجع سابق، ص64.

[12] المرجع السابق، ص11.

[13] محاضرات في الأسلوبية وتحليل الخطاب، وردة بويران، دار خالد اللحيانِي، مكة، 2017م، ص125.

[14] الأسلوب والنّحو، محمّد عبد الله جبر، دار الدعوة- الاسكندرِيّة، ط1، 1409-1988م، ص9.

[15] ينظر: التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مرجع سابق، ص68.

[16] الأسلوبِيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدِّي، ط3، الدار العربية للكتابِ، د س ن، ص164.

[17] التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مرجع سابق، ص56.

[18] الأسلوبية والبلاغة العربية مقاربة جمالية، مسعود بودوخة، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، 2016، ص56.

[19] التّحلِيل اللُّغوِي الأسلوبِي منهَجٌ وتطبِيق، مرجع سابق، ص5.

[20] المرجع السابِق، ص6.

[21] المرجع السابِق، ص8.

[22] المرجع السابِق، ص16.

[23] المرجع السابِق، ص6.

[24] تحلِيل لغوِي أسلوبِي لنصوصٍ من الشّعرِ القدِيم، مرجع سابق، ص13.

[25] المرجع السابق ص35.

[26] المرجع السابق ص44.

[27] سورة الحج: 2.

[28] ابن القيم الجوزِية: بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد الج، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط1، 1416 – 1996، 826/4.

[29] دراسات أسلوبِيَّة في التُّراث، مرجع سابق، ص48.

[30] سورة هود: 73.

[31] سورة ص: 78.

[32] ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد، مرجع سابِق، 400/2.

[33] سورة البقرة: 17.

[34] محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، ط3، 1430 – 2009م، ص52.

[35] محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص52.

[36] سورة البقرة: 19.

[37] لعلها: رأَيْس تصغير الرّأس، أو تحريف صَوابه رأس.

[38] محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص54.

[39] دراسات أسلوبِيَّة في التُّراث، مرجع سابق، ص65.

[40] سورة المائدة: 3.

[41] أحمد بن محمّد المرزوقِي، شرح ديوان الحماسة، تح: أحمد أمِين وعبد السّلام هارون، دار الجِيل، بيروت، ط1، 1411هـ- 1991م، ص236-237.

[42] شرح ديوان الحماسة، مرجع سابِق، 1153/2. وفي نسبته اختلافٌ.